الإستشراق الألباني

الـدور– الـهـدف– الـمـهـام

• د. عبدالله حميدي

منذ تأسيس قسم الأستشراق في كلية الآداب بجامعة بريشتينا في عام 1973 تُدرّس اللغة العربية وآدابها، واللغة التركية وآدابها، وكذلك بشكل غير مباشر (بواسطة اللغة العثمانية) اللغة الفارسية على مستوى جامعي. وقد كان مؤسس هذا القسم د. حسن كلشي (1922–1976 H.Kaleshi) الذي كان يعرف جيداً هذه اللغات الشرقية، بفضل نظام التعليم التقليدي للمسلمين الذي مكّنه من تعلّم هذه اللغات(1).

ومع تأسيس هذا القسم فقد أخذ د. كلشي بالمفهوم الأوروبي آنذاك للاستشراق، وبالتحديد مفهوم الفيلولوجيا الشرقية الذي يفترض دراسة لغات وآداب الشعوب التي حملت الحضارة الإسلامية (العرب والفرس والأتراك). فهذا المفهوم كان يناسب تماماً محيطنا، حيث إن الحضارة الإسلامية خلال الحكم العثماني الذي استمر حوالي 500سنة قد تركت آثاراً عميقة في الثقافة المادية والروحية، وبالتحديد في مجال التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والثقافي. وقد أُخذ هذا الأمر بعين الاعتبار خلال إعداد الخطط الدراسية في هذا القسم، وذلك لأجل دراسة أفضل لتاريخنا ولغتنا وفولكلورنا وأدبنا، حيث تبدو بوضوح المؤثرات الشرقية– الإسلامية.

ومع ذلك لابد من القول: إن الإستشراق الألباني أخذ يظهر قبل تأسيس هذا القسم في العقد السابع من القرن الماضي. وهنا نقصد بذلك نتاج الشخصيات المعروفة التي أخذت تنشر في الصحف والمجلات أعمالها الأولى التي تتعلق بإسهامات الأسماء المعروفة باللغات الشرقية في التراث الألباني، وخاصةً الأدب الألباني بالحروف العربية، والكتابات المختلفة عن الإسلام والثقافة الإسلامية، بالإضافة إلى الترجمات الرائعة من الأدب الشرقي / الإسلامي لكبار المثقفين، مثل الحافظ علي كورتشا A.Korca، والحافظ إبراهيم داليو I.Daliu، وحقي شاروفي H.Sharofi، ووجهي بخاريا V.Buharja، وطاهر دزداري T.Dizdari، وعثمان مدرسي O.Muderrizi وغيرهم.

إن كل محاولة للكتابة عن الاستشراق الألباني، وخاصةً عن نتائجه ولو بشكل مختصر، تحتاج إلى بحث خاص ولكننا هنا سنركز على دور الاستشراق الألباني وهدفه ومهامه، مع ذكر بعض نتائجه. وينبع هذا من أن مصطلح الاستشراق في حد ذاته شامل، فهو تحديد ثقافي يعني الاهتمام بلغات وآداب وتاريخ الثقافات وحضارات الشرق الإسلامي، وفي الدرجة الأولى اللغات العربية والتركية والفارسية، ومن ثمّ يعني المساهمة

*رئيس قسم الاستشراق في جامعة بريشتينا / كوسوفو

التاريخية والمعاصرة للغات العربية والتركية والفارسية في المناطق الألبانية. فالألبان اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر وأصبحوا جزءاً من الثقافة الإسلامية، لذلك فإن اللغات العربية والتركية والفارسية لم تعد هدفا للاهتمام العلمي (الفيلولوجي) للدارسين في المجالات الأدبية والنقدية فقط، بل أصبحت لدى الألبان أداة للإبداع الأدبي في المناطق الألبانية، ولذلك نجد عند الألبان منذ القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين الكثير من الكتّاب الذين أبدعوا في مجال الثقافة باللغات المذكورة (العربية والتركية والفارسية) وهو ما يجب اعتباره جزءاً من الإبداع الألباني وليس جزءاً من الإبداع الشرقي كما يدّعي البعض لدوافع مختلفة.

وانطلاقاً من حقيقة أن الكثير من الألبان كتبوا أعمالهم باللغات الشرقية يمكن القول: إن كثيراً من الألبان في المجتمع الألباني كانوا يعرفون جيداً اللغات الشرقية، ولو أن هؤلاء كانوا ينحصرون ضمن الكتاب وعلماء الدين. ومن المعروف أن مناهج التعليم التقليدي الإسلامي في المناطق الألبانية كما في غيرها من المناطق؛ كانت تمكن من تعلم اللغات الثلاث المذكورة (العربية والتركية والفارسية). ومن هنا فإن بدايات الفيلولوجيا الشرقية نجدها في نتاج مدرسي اللغات الشرقية في الكتاتيب والمدارس الشرعية، والتكايا، ثم في المدارس الحكومية، وبالتحديد في تدريسهم و مؤلفاتهم التي وضعوها لتدريس هذه اللغات.

ومن المؤكد أن لدينا من بين هؤلاء المدرسين في المدارس الإسلامية من يعرف جيداً اللغات والآداب الشرقية الإسلامية، التي تعلمها سواء في وطنه أو في إستنبول وغيرها من مراكز الدولة العثمانية. وهؤلاء الذين لا يعرف عنهم الكثير يستحقون جميعاً أن يشملهم الاستشراق الألباني في التاريخ الثقافي المكتوب للألبان. وفي هذا الإطار يمكن أن نبحث عن إسهامات الاستشراق الألباني في كتابات هؤلاء الألبان التي تتعلق بوصف وتحليل وتقييم أعمال الكتّاب الألبان الذين ألفوا في اللغات الشرقية. ونظراً لأننا نعتبر الاستشراق علماً يتعاطى الدراسة الفيلولوجية للغات العربية والتركية والفارسية وآدابها وتراثها، فإن الأعمال المبكرة لهؤلاء الكتاب في وصف وشرح المؤلفات الشرقية يمكن اعتبارها بدايات العمل العلمي في مجال الاستشراق الذي كان مثمراً في المراكز المختلفة (المدارس الإسلامية والتكايا الخ).

وهكذا فقد أخذ الألبان خلال عدة قرون (ق15–20) يؤلفون في اللغات الشرفية (العربية والتركية والفارسية)، التي كانت وحدها تسمح بمتابعة الدراسة. ففي اللغة العربية ألّفت الكتب في مجالات الفقه الإسلامي والعقيدة والفلسفة واللغة وغيرها. أما في اللغة التركية، (التي كانت اللغة الرسمية في الدولة العثمانية) فلدينا أولاً الوثائق الرسمية التي يمكن دراستها من منظور أدبي، ولدينا الأهم الذي يتمثل في أدب الديوان ، أي الشعر المنظوم حسب نموذج كبار الشعراء الفرس الكلاسيكيين الذين كانت له قواعده الجمالية والشكلية. وبالإضافة إلى ذلك فقد ألّفت في التركية حواش وكتب رحلات وغيرها، أما اللغة الفارسية فقد كان استخدامها في النثر محدوداً، بينما استخدمت أكثر للتعبير الشعري الراقي، وخاصة لدى الشعراء في الطرق الصوفية (المولوية واليكتاشية والرفاعية، والسعدية، وغيرها) الذين كانوا يستلهمون في ذلك شيوخ تلك الطرق.

ومن هنا فإن لدى الاستشراق الألباني الكثير من العمل للكشف عن التراث الشرقي في المناطق الألبانية والتعريف به، مع أن هذا التراث قد تعرّض باستمرار للتدمير والحرق والضياع. وفي هذا الإطار فإن المهمة الدائمة للاستشراق الألباني يجب أن تكون في دراسة التراث المكتوب في العربية والتركية والفارسية، الذي هو تراث ثقافي ألباني يمكن من خلاله الحكم على مدى اندماج الألبان في الحياة الفنية والعلمية الشرقية– الإسلامية. ومن المؤكد أن هذا التراث، سواء من حيث الحجم أو من حيث القيمة، يستحق الاهتمام والدراسة.

ويمكن لنا أن نجد المعطيات الأولية الدالة على الكتّاب الألبان الذين كتبوا في اللغات الشرقية في التواريخ وتذاكر الشعراء، ومن المعطيات الكاملة يمكن أن نجدها في موسوعة «قاموس الأعلام» لسامي فراشري **S.Frasheri** الذي خصّص مقالات كثيرة عن الشخصيات الألبانية (2).

ومع ذلك فقد تأخر الاهتمام بهذا العمل إلى أن جاء حسن كلشي، المستشرق الألباني الأول المعاصر، وقام بالخطوة الأولى في مجال دراسة الأدب الألباني في اللغات العربية والتركية والفارسية، التي كان يعرفها جيداً، ولا تزال أعماله في هذا المجال تعتبر نقطة انطلاق لكل الباحثين المعاصرين في هذا الجانب المهم للماضي الثقافي لشعبنا .

أما تقسيم هؤلاء الكتّاب حسب اللغات فإن هذا يكاد يكون من المستحيل نظراً لأن الواحد منهم كان يكتب بلغتين، وأحياناً في اللغات الثلاث، وكذلك في لغته الألبانية، وهو ما يدل على

التداخل اللغوي- الثقافي وعلى الاختصاص اللغوي المتعدد الوظائف للنخبة المتعلمة آنذاك.

إن العمل الذي بدأه حسن كلشي بقي حيثما تركه، حيث لم يشتغل أحد بشكل مباشر بالكتّاب الألبان في اللغات الشرقية، ولكن لدينا الآن أصوات تدعو إلى أن تدرج هذا النتاج الألباني في الأدب التركي- العثماني. ومع أنه لا خلاف في أن هذا النتاج

الأدبي للألبان في اللغات الشرقية يمكن أن ينظر إليه بوصفه جانباً من الأدب التركي العثماني، الذي هو في الإطار الثقافي- الحضاري والشعري العثماني الشرقي، إلا أن هذا لا يمكن فصله عن الثقافة الألبانية وعن التاريخ الثقافي الألباني. فهذا النتاج الأدبي يعكس أيضاً جوانب حميمة للثقافة القومية الألبانية إلى جانب أنه يعكس الثقافة العامة الشرقية الإسلامية. ومع البحث في هذا التراث ودراسته، الذي لا يزال مخطوطاً، يمكن لنا أن نتعرّف المستوى التعليمي الثقافي للكتّاب وعن المراكز الثقافية التي عاشوا وأبدعوا فيها، وعن أنواع وأشكال الأدب في اللغات الشرقية .وهنا تقع على عاتق الجيل الجديد القادم من الباحثين /المستشرقين مهمة تقييم إسهام هؤلاء الكتاب في هذا المجال، وبالتحديد قيمته الأدبية التاريخية وإنجازه الأدبي الجمالي في إطار مجمل الأدب التركي- العثماني.

ونظراً لأن الألبان قد خلفوا تراثاً ثقافياً وعلمياً معتبراً في اللغات الشرقية فإن العبء الأساسي يقع على عاتق الاستشراق الألباني للكشف عن هذا التراث وتقييم هذا الجانب الثقافي والعلمي في تراثنا. ولاشك في أن مثل هذا العمل سيكون صعباً ويتطلب في الدرجة الأولى كثيراً من الصبر والإرادة لتصفح المخطوطات الكثيرة التي يعلوها الغبار سواء في المؤسسات الرسمية أو في البيوت الخاصة، وذلك لأجل الكشف عن هؤلاء الكتّاب ومؤلفاتهم، وعن أماكنهم وعصرهم، وجمع المعطيات المتعلقة بحياتهم وأعمالهم. وبذلك يمكن الكشف عن أسماء كتّاب غير معروفين حتى الآن. وبالاستناد إلى ذلك يمكن إجراء دراسات وأبحاث مونوغرافية عن أهم الكتّاب أعمالهم.

ولابد أيضاً من القيام بأبحاث عن النسّاخ الذين عملوا على نسخ هذا التراث الكبير المخطوط في المناطق الألبانية. ولو ألقينا نظرة عامة لوجدنا أن في جاكوفا **Gjakova** وبريزرن **Prizren** وغيرها من المدن أناساً متخصصين في نسخ أهم المؤلفات في هذا التراث باللغات الشرقية، الذين تشكّل بفضلهم هذا النتاج للأدب والثقافة الإسلامية.

وأعتقد أن الوصول إلى هذا العمل على رأس المهام المطروحة التي لابد من إنجازها بسرعة وإعداد فهرس للمخطوطات الشرقية في كوسوفو على نمط ما جرى في ألبانيا (3).

ومن المعروف أن العمل في إعداد مثل هذا الفهرس يتطلب جهداً جاداً وطرحا سريعاً، وقد تم خلال **2002-2004** في كوسوفو وضع سجل بالمخطوطات الشرقية سواء الموجودة في المؤسسات الإسلامية أو التعليمية- الثقافية أو في المكتبات الخاصة. وقد عمل في إعداد هذا السجل فريق عمل مؤلف من خمسة متخصصين/مستشرقين، إلا أن هذا العمل توقف عند استكمال البطاقات المشتملة على المعلومات الأساسية عن المخطوطات، مما يجعل هذه المعلومات غير متاحة للباحثين. ولذلك فإن إنجاز ونشر مثل هذا الفهرس يعتبر على رأس مهام الاستشراق

الألباني(4).

وإلى جانب ذلك يعد نشر المصادر الأرشيفية– التاريخية الأولية في اللغة التركية– العثمانية على رأس مهام الاستشراق الألباني، على الرغم من أن لدينا بعض الإنجازات في هذا المجال. ولذلك فإن المزيد من العمل المنظم على شكل مجموعات عمل يمكن أن يؤدي إلى نتائج أكبر في إعداد الدفاتر والسجلات والسالنامات والوقفيات ومجموعات الوثائق وغيرها التي يمكن أن تكشف عن معطيات تاريخية واجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية مهمة جداً. ومع هذه المعطيات الأرشيفية يمكن أن يكون لدينا قاعدة أساسية لصورة موضوعية أكثر عن تاريخنا القومي، ويمكن لها أن تؤدي إلى إضافات وتصويبات في المؤلفات التاريخية المنشورة. وبهذا الشكل يمكن للاستشراق الألباني أن يساعد علم التاريخ لدينا على أن يعتمد على مصادر علمية صحيحة. وبالطبع لا يجب أن ننسى هنا الحوليات العثمانية التي يجب أن تنشر وخاصةً ما يتعلق منها بالمناطق الألبانية تحت الحكم العثماني. ومثل هذه الحوليات بالإضافة إلى المذكرات وكتب الرحلات وغيرها، لها أهمية كبيرة لعلم التاريخ ولثقافتنا القومية بشكل عام.

ولأجل التعرف على ما تمّ إنجازه حتى الآن من الضروري إعداد مرجع ببلوغرافي للاستشراق الألباني، حسب المعايير الضرورية، حيث يمكن تجميع كل الإسهامات حسب المجالات المختلفة. وفي إطار التراث الثقافي الألباني الذي يمتد عدة قرون فإن الأدب الألباني المكتوب بالعربية يمثل مكانة خاصة، فهذا الأدب يمثل حلقة الوصل بين الأدب الشعبي الشفوي (الشعر الغنائي الشعبي، الشعر الملحمي، القصص الشعبية الخ) والأدب الفني، وبالتحديد الأدب الفني المتنوع للشرائح المتعلمة المكتوب في التركية والعربية والفارسية (5).

وبالمقارنة مع التراث الألباني في اللغات الشرقية فإن الأدب الألباني المكتوب بالعربية قد حظي ببعض التقدير، وهكذا فقد حظي هذه الأدب، الذي استمر حوالي ثلاثة قرون وكتب بأشكال لطيفة مأخوذة من الشعر الشرقي الإسلامي (القصيدة، الغزل، المثنوي)، باهتمام بعض الباحثين الذي اشتغلوا فيه. وهكذا فقد اشتغل بدراسة هذا الأدب سامي فراثري ونعيم فراثري **Naim Frasheri**، ثم بعض الباحثين الأوروبيين المتخصصين في الدراسة الألبانية مع الفارق فيما بينهم. ولكن على الرغم من الأبحاث الممتازة التي أنجزت خلال الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وقام بها عثمان مدرسي في ألبانيا وحسن كلشي في كوسوفو، اللذان كانا يمتازان بتخصصهما في هذا المجال، فإن العمل في هذا المجال يحتاج إلى مزيد من الجهود في جمع وتقييم هذا الأدب حسب معايير محددة. فبعض الذين اشتغلوا في هذا المجال ليسوا من المستشرقين الألبانيين، فهم لايعرفون جيدا هذا الأدب ولا الثقافة الشرقية الإسلامية، ولذلك فإن كتاباتهم في هذا المجال كانت وصفية وسطحية دون التعمق في التحليلات والمقارنات المتخصصة.

لذلك لدينا لأول مرة منذ أربعين سنة مع الجيل الجديد للمستشرقين الألبانيين دراسات تتعلق بالابجدية العربية التي كتب بها هذا الأدب، وتتناول تكييف الحروف العربية لاستخدامها لأجل كتابة اللغة الألبانية وفق معايير لغوية– مقارنة (6).

وفي هذا الإطار يمكن القول: إن أكثر المهام المطروحة على االستشراق الألباني إلحاحاً هي انجاز التقسيم التيبولوجي للأدب الألباني المكتوب بالعربية، لأن مثل هذا العمل يمثل إسهاماً علمياً جدياً للكشف عن الظاهرة التي يمثلها هذا الأدب. وعلى حد علمنا فإن مثل هذا الأمر لم يعنى به أحد ضمن الكتابات التي نشرت عن هذا الأدب. وحين يتم مثل هذا العمل، فسيكون لدينا معرفة جيدة بهذه الإشكالية، ويمكن حينئذ أن تتضح الاتجاهات التي يجب على الأبحاث اللاحقة أن تأخذ بها. ويبدو لي أنه إلى جانب دراسة أجناس هذا الأدب يبقى علينا القيام بإنجاز دراسات مونوغرافية عن أهم شعراء هذا الأدب الألباني المكتوب بالعربية.

إن أهداف الاستشراق الألباني ومهامه، التي ناقشناها سابقاً، تفرض نفسها على أنها من الأولويات بسبب الاهتمام الاجتماعي والعلمي، وهي توجه الاستشراق الألباني في ذلك الاتجاه الذي يخدم التاريخ والدراسات الألبانية، لأنه بهذا يستند إلى مصالح قومية محددة لدراسة المكونات الشرقية الإسلامية في كياننا القومي والسياسي. وبهذا المعنى فإن الاستشراق في المجال الألباني إنما هو نشاط علمي قومي، وهو ما يجب أن نأخذه دائماً بعين الاعتبار، مع أن هذا الامتياز (الحضور القومي للإسلام والتراث الثقافي التاريخي وأسلوب الحياة لدينا) قد اعتبره الكثيرون وقتاً طويلاً – وربما لا يزالون حتى اليوم– من العوائق الصعبة.

ولأجل ذلك فقد تحدد مفهوم الدراسات الشرقية لدينا وغدا الاستشراق الألباني علماً مساعداً للتاريخ القومي نظراً لأنه

ينشغل أساساً بالتراث الشرقي الألباني. وبعبارة أخرى فإن الاستشراق الألباني سيغلب عليه في المستقبل أيضاً الجانب الثقافي، ولذلك يمكن القول هنا: إن اللغة الشرقية تصبح أداة تحليل أكثر مما هي هدف دراسة.

ومع ذلك لابد لنا بالتدريج من احترام حقيقة الاستشراق بوصفه علماً فيلولوجياً معاصراً وله متطلباته العلمية والمنهجية الخاصة. لذلك من الضروري الاهتمام برفع مستوى الكوادر العلمية في المجال الفيلولوجي لتكون قادرة على القيام بأبحاث في الاستعراب والاستتراك، حيث من الضروري أن تكون لدينا دراسات مقارنة بين العربية والتركية واللغات الأخرى ودراسات سوسيولغوية (التعددية اللغوية، اللغات المستخدمة في التواصل، التفاعل اللغوي الخ)، حتى دراسات عن التراث الثقافي للعرب والأتراك وصولاً إلى دراسة الأعمال الرئيسية في المجالات المختلفة الأدبية والفنية والعلمية والدينية والفلسفية والصوفية ... الخ.

ومن ناحية أخرى على الاستشراق الألباني أن يوجه اهتمامه أيضاً لدراسة الإسلام ديناً سماوياً، جاءنا بواسطة القرآن الكريم، مفسّراً بالأحاديث النبوية. فقد واكب انتشار الإسلام التقدم المعرفي والعلمي، وحين كان الإسلام يزهو في القرون الوسطى بحضارته كانت أوروبا تغط في الظلام، وربما يكمن هنا السبب في تجاهل الاستشراق الأوروبي للإسلام، وبالتحديد في كون التقدم الذي حصل في العالم الإسلامي إنما مرده إلى الإسلام ذاته (القرآن الكريم والحديث النبوي). ومن هنا فإنه لابد أن تقدم للقراء الألبان الأعمال الرئيسية للثقافة الإسلامية التي كتبها أشهر المؤلفين في الثقافة الإسلامية الكلاسيكية. وهنا لدينا مواضع مهمة تمثل الثقافة الإسلامية سواء في مجال الأدب أو العلم والفلسفة الإسلامية، التي تعتبر من الأعمال المميزة للتعبير الروحي للمسلمين، كما هو الأمر مع المعري وجلال الدين الرومي وابن خلدون وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن طفيل وابن عربي وغيرهم من الذين ترجمت مؤلفاتهم إلى لغات كثيرة. ومن المعروف أن أعمال هؤلاء وغيرهم كان لها أثرها الكبير في النهضة الأوروبية، وهي تمثل أغنى مرحلة للفكر الإسلامي كما تمثل صورة جيدة لفهم الإسلام والثقافة الإسلامية.

وهكذا يمكن للاستشراق الألباني، عندما يقوم بدوره وتنجز المهام المطروحة أمامه، أن يثبت نفسه أمام القراء الألبان بإسهاماته العلمية، وأن يثبت الحاجة إلى الدراسات الشرقية للعلوم الأخرى في بلادنا. ونظراً لأن الاستشراق الألباني في كوسوفو قد تجاوز عمره الأكاديمي 35عاماً فإنه آن الأوان أن يخرج بجرأة من الإطار الأكاديمي الضيق الذي نشأ فيه، وأن يصبح جزءاً من الحياة الثقافية، وبذلك يغدو الاستشراق عاملاً من عوامل ثقافتنا الشاملة. وإلى جانب ذلك يمكن له وبما يقدمه من أعمال جادة وإسهامات محددة، أن يساعد في تقييم وتحديد اتجاهات الوعي الثقافي عند العالم الإسلامي.

الهوامش

(1) للمزيد عن د.حسن كلشي ونتاجه العلمي في العربية انظر: محمد م. الأرناؤوط، المستشرق حسن كلشي، مجلة « البيان «(جامعة آل البيت) ، عدد 1 ، المفرق 1997، ص 237–246

(2) نشرت في اللغة الألبانية مختارات من « قاموس الأعلام» تضم الشخصيات الألبانية من إعداد د. مهدي بوليسي:
Sami Frasheri,Vepra 9,Shkup(Logos–A)1994

(3) صدر هذا الفهرس عن المخطوطات الشرقية في ألبانيا باللغات الألبانية والتركية والإنكليزية:
Katalogu i doreshkrimeve osmane ne arkivat e Shqiperise,Ankara 2001

(4) مول هذا العمل مكتب تمثيل الولايات المتحدة في بريشتينا، وعمل فيه نهاد كراسنيشي وفتحي مهدي وعبد الله حميدي وكمال مورينا وبختية غربيشي.

(5) للمزيد حول هذا الأدب في اللغة العربية، انظر: د. محمد موفاكو، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، الكويت (سلسلة عالم المعرفة) 1983.

(6) انظر على سبيل المثال :
Abdullah Hamiti,Rreth grafise se veprave te Tahir Efendi Llukes,Hena e re,nr.8081–,Shkup 1994;Veshtirsite e leximit te tekstave shqipe me grafi arabe,Seminari nderkombetar per gjuhen,letersine dhe kulturen shqiptare 19,Prishtine 2001,pp.147156–;Isa Memiqi,Traskriptim I shkrimeve shqipe me grafi arabe,disertacion i doctorates ne Fakultetin e filologjise,Prishtine 2005.